مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

بذور الشر

عبد الله عبد الامير

سلسلة ابحاث مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرّه الرئيس في بغداد. مهمته الرئيسة، فضلاً عن قضايا أخرى، تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بشكل خاصٍ ومنطقة الشرق الأوسط بشكل عام. ويسعى إلى إجراء تحليل مستقلّ، وإيجاد حلول عمليّة جليّة لقضايا معقدة تهمّ الحقليْن السياسي والأكاديمي.

جميع الحقوق محفوظة © لمركز البيان للدراسات والتخطيط 2016

الاراء الواردة في هذا البحث لاتعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز

بـذور الشـر

عبد الله عبد الامير *

مقدمة

لم يعرف عن نظام حزب البعث الذي حكم العراق خلال الأعوام 1968 – 2003 أنه كان يتبنى الاسلام كإيديولوجيا أو مصدر مهم لقيمه التي كانت كانت توصف في أغلب الأحيان بأنها علمانية ذات اتجاه واحد تؤسس لنظام شمولي يتبنى المركزية والقسوة في الحكم. ولكن يبدو أن تسعينيات القرن الماضي شهدت تحرك النظام الحاكم آنذاك نحو دمج بعض الأفكار الاسلامية ضمن أدوات السيطرة والتحكم التي مارسها حزب البعث ليثبت حكمه المعزول عن المجتمع العراقي. وبغض النظر عن الأسباب التي دفعت النظام آنذاك إلى تبني مثل هذه الاستراتيجية، التي كان محورها ما أطلق عليه ''الحملة الإيمانية الوطنية الكبرى''، فإن لهذه الحملة آثار وتداعيات مازالت آثارها شاخصة إلى يومنا هذا في العراق والمنطقة. ويبدو من خلال ملاحظة تطور الممارسات السياسية لحزب البعث خلال ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضي، ومع تنامي بما عرف بـ''الصحوة الاسلامية''، فقد سعى النظام إلى التحكم بتوجهات المجتمع الدينية عبر بلورة عناوين اسلامية تقاد وتؤطر عبر توجيهات واساليب وأطر حزب البعث. خصوصاً مع انحسار الفكر القومي الذي ركب موجته ذات الحزب في فترة سابقة. وقد وجد الحزب في السيطرة على مساحة الصحوة الدينية في العراق موقعاً يستطيع من خلاله ترسيخ واقع طائفي في الساحة العراقية طالما سعى أن يثبته من خلال الفكر القومي في فترة سابقة.

عند البحث في السياسات التي انتهجها حزب البعث خلال أواخر فترة الحرب العراقية–الإيرانية، وبعد حرب الخليج الأولى، والتي أنتجت كلاهما نظاماً ضعيفاً حاول أن يستقوي باساليب وممارسات تستند على البطش والتنكيل وعلى سياسات حاولت أن تناغم الحس الديني العام وتستفيد من الدين كي تضفي مشروعية على وجوده في السلطة، بالاضافة الى تجذير البعد الطائفي الذي درج النظام على تنفيذه خلال فترة طويلة من الزمن.

* باحث في مركز البيان للدراسات والتخطيط

وقد جاءت استراتيجية ما أطلق عليه ''الحملة الإيمانية الوطنية الكبرى'' تتويجاً لتلك الممارسات التي كانت تتحرك بخطوات منهجية عبر وقت ليس بالقصير، لتكون بمثابة انتقال خطير في سياسات الحزب نحو بث المزيد من التطرف والعنف في المجتمع العراقي. وتشير الكثير من الأدلة المتعلقة بأداء الحملة الإيمانية التي أطلقها راس النظام السابق أنها تمثل بذرة مهمة لنشوء التنظيمات المتطرفة التي بدأت تحمل شعارات اسلامية بعد سقوط النظام، وعلى رأسها تنظيمات مثل القاعدة، وجيش الطريقة النقشبندية، وداعش وغيرها. ويبدو أن الحملة الإيمانية كونت بنية تحتية خطيرة للارهاب الذي يسود العراق والمنطقة حالياً، من حيث الفكر، والرجال، والأساليب. ولا يستبعد أن تكون هذه الحملة الايمانية التي تحركت خلال ما يقارب العقد من الزمن وفي ظل ظروف سيئة عاشها العراق هي أحد المحركات الأساسية لوجود تنظيمات متطرفة وبالغة القسوة، تنتهج أساليب حزب البعث الاستئصالية والشمولية والمنهجية في استئصال من يختلف معها، وتقاد من قبل بعض رجال الحزب وحاملي أفكار ولكن تحت عناوين سلفية ودينية متطرفة لشرعنة تحركها واستمرارية وجودها.

حزب البعث والاسلام

ينظر ميشيل عفلق، مفكر حزب البعث الى الاسلام على أنه ديانة قومية عربية. يشكل التفكير القومي العربي، ويصلح لأن يكون ايديولوجيا قومية تشكل الدافع، والمحرك لها. وحسب تعبيره فإن ''الاسلام هو الذي حفظ العروبة وشخصية الامة ...وسيبقى دوماً قوة اساسية محركة للنضال الوطني والقومي.'' ويبدو أن نظرة عفلق إلى الدين، وهي نظرة مطاطة وهلامية بشكل كبير، قد صاغت نظرة حزب البعث في تعاطيه مع الدين والاسلام، ويظهر أن هذه النظرة تعكس منهج حزب البعث ليس فقط نحو الدين ولكن مع أغلب المسائل والتحديات التي تتطلب مواقف واضحة في المجتمع والدولة. حيث مثلت المتكأ الذي استند عليه حزب البعث في تعاطيه مع التقلبات التي عاشها الحزب على مستويات المبادئ، الخطاب السياسي، التعامل، والسلوك، وحتى اسلوب الحكم، والعلاقات الخارجية. ويبدو أن هذه النظرة هي التي حددت هوية، وايديولوجيا وسياسات الحزب في العراق.

تعريف الدين بالنسبة لميشيل عفلق وحزب البعث واسع جداً وغير محدد الأطار، فهو يتوسع في التعريف إلى درجة أنه يقول أن '' الثورة على الدين في أوروبا هي دين.''[1] وهكذا تم وضع تعريف جديد للدين يتحرك في أفق التفسير المجازي لكل ما ينسجم مع تفكير حزب البعث وفق حراكه السياسي. وفي أجواء الحرب العراقية الإيرانية في 1980، نجد حزب البعث يخرج بتعريف آخر للاسلام، فقد ذكر ميشيل عفلق في لقاء له مع صحيفة الثورة العراقية تعريفاً جديداً للاسلام، تداخل مع تعريف حزب البعث الذي هو ''الايمان، وهو التجربة الروحية في حياة العرب وهو الإسلام،

وروح العصر وهي العقلانية."[2] وأن الاسلام ما هو إلا "ثقافة قومية موحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم."[3]

إذن من حيث الفكر والايديولوجيا، فإن نظرة حزب البعث الى الاسلام كانت نظرة اعتراف بالأمر الواقع، ولكن في نفس الوقت كان الحزب يعمل على تطويع وطي الدين بالشكل الذي يتماشى مع المصالح السياسية للحزب وحسب الظروف. إذ أن حزب البعث طرح نفسه كبديل علماني للحركة الشيوعية في خمسينيات القرن الماضي، متبنياً "الوقوف بوجه الإلحاد." وبذلك حاول كسب موطئ قدم في المجتمع العراقي الذي كان يمر بحالة من التطور السريع ويعيش تناقضات الحداثة والمحافظة، وسط بيئة اقليمية كانت تغلي بالصراعات السياسية بسبب اشتعال الحرب الباردة.

ولكن يبدو أن الصراع الذي دخل فيه حزب البعث مع الاسلاميين في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي، قد جعلته يعيد حساباته، ويقيم خطابه السياسي تجاه الدين الاسلامي. إذ أن الحزب كان يخسر شعبياً في تبنيه سياسات استئصالية وغير دينية ضد الاسلاميين، وفق سياساته العلمانية الصارخة،، أبرزته على أنه في حالة صراع حقيقي مع الاسلام والالتزام الديني والقيم الدينية في المجتمع.

تذكر بعض المصادر بأن حزب البعث كان يناقش صورته "الإسلامية" في عام 1986[4]. حيث تبنى صدام حسين، في اجتماع سري للقيادة القومية لحزب البعث آنذاك وضع استراتيجية تصالح بل وحتى إنشاء تحالف سري مع الاخوان المسلمين في كل من مصر والسودان. وعلى عكس ما كان معروفاً عن حزب البعث الذي كان يعيش في حالة صراع مع القوى الإسلامية. ويبدو أن هذا التوجه قد بدأ يتحرك في أفق استقطاب طائفي إضافي لسياسات حزب البعث تحت عناوين اسلامية هذه المرة، خاصة أن النظام آنذاك كان منخرطاً في حرب مضنية مع ايران. ولكن حزب البعث كان يتواصل مع جماعة الاخوان المسلمين في سوريا وبشكل مبكر، في عام 1982، ولأسباب تكتيكية لاضعاف عدوه اللدود، نظام حافظ الأسد. ويظهر أن الطرفين لم يتوصلا الى تفاهم حول انشاء جبهة موحدة ضد النظام السوري، بسبب اختلافهما حول بعض المعايير الايديولوجية حول دور الدين في الحياة والمجتمع. وتشير محتويات اللقاء في عام 1986 إلى أن حزب البعث قرر الطلب من كل من سعيد حوا، وعدنان سعد الدين، وهما عضوان في جماعة الاخوان المسلمين السورية التوجه الى مصر والسودان لاقناع الجماعة هناك بأن ميشيل عفلق، منظر حزب البعث لم يكن ملحداً كما كان يتصور لديهم، وأن حزب البعث يؤمن بالاسلام كديانة سماوية وان قياداته ومن بينها عفلق، وصدام حسين مؤمنون بالاسلام[5].

تبنى نظام حزب البعث سياسات قمعية ضد الاتجاهات الدينية في المجتمع العراقي، كان

أغلبها ذات صبغة طائفية. وفي عام 1977 قام النظام بقمع انتفاضة شيعية كبرى، كان يمكن أن تتمدد لتشكل خطراً على النظام. وبرزت توجهات الحزب ذات الصبغة العلمانية المتشددة كأساس يستند عليه لضرب أي توجه اسلامي ينتشر في المجتمع. الغاية كانت أساساً موجهة لضرب الحراك الشيعي آنذاك، ولكن لخشيته من انقسام الحزب على أسس طائفية، فقد أدخل الحزب في صراع مع الإسلاميين السنة أيضاً ولكن على مدى محدود. وقد حاول الحزب ربط أي تحرك ديني في المجتمع على أنه مرتبط بقوى ودول من خارج العراق. وفي حديث لصدام حسين لأعضاء حزبه عام 1977 نرى أن التخبط في التعامل مع الدين في المجتمع العراقي كان يلقي بظلاله على تفكير الحزب وسياساته، إذ تساءل صدام[6] .

''فأي الاساليب تطبق على مسألة التعصب الديني والمذهبي في هذه المرحلة؟ هل المطلوب أن نتحول نحن الى مواقع الناس الذين يطرحون المسألة الدينية وطقوسها طرحاً منحرفاً او خاطئاً عن طريق التداخل معهم والالتقاء «المؤقت» مع مفاهيمهم وأساليبهم لكي نؤثر فيهم ونغير من قناعاتهم.. وبالتالي نقودهم على الطريق الصحيح.. ام أن المطلوب هو التميز عنهم عن طريق طرح كامل تصوراتنا المبدئية،الصميمة في المنطلقات والاهداف والاساليب؟.''

وقد أجاب، ''بعض القوى المضادة اصبحت تستخدم الدين لاهداف سياسية، فعليك ان لا تستخدم الدين لأهداف سياسية وان لا تصطدم بهم بشكل مباشر وبأساليب تقليدية. أن بعض اوساط الرجعية عندما تتصرف تصرفات استفزازية ضد الثورة تحت غطاء الشعائر الدينية فأنها، وبدافع من الاستعمار، تقصد جر الثورة واجهزتها الى التدخل في الشؤون الدينية وفق صيغ واساليب غير متوازنة بما يثير اوساطاً شعبية هي جزء من الحركة العامة للثورة ومصلحتها جزء من مصلحة الثورة.''، ، فان المطلوب منا هو أن نكون ضد تسييس الدين من قبل الدولة وفي المجتمع، وضد اقحام الثورة في المسألة الدينية وان نعود الى اصل عقيدتنا، وان نعتز بالدين بلا سياسات للدين، لانك حين تجعل من نفسك واعظاً او مرشداً دينياً وتطلب، ومن موقع رسمي او حزبي، من الناس أن يؤدوا الطقوس الدينية، انما يتوجب عليك ان ترشدهم الى كيفية اداء تلك الطقوس، وما يترتب عليها من التزامات تبعية، واذا ما دخلت في ذلك فسوف تبدأ المشاكل والتعقيدات، حيث تبدأ الاختلافات وفق اجتهاد المذاهب الاسلامية، أفليس هذا دخولا في السياسة الخاسرة من أخطر أبوابها في الوقت الذي بامكانك أن تربحها عن طريق اخر؟.''

يبدو إذن أن الحزب، كان يعيش عقدة التعامل مع الدين في المجتمع بعد انتفاضة صفر عام 1977، وقد كان يستشعر الخطر الذي يمثله الدين عليه. وبالتالي فإن صدام حسين كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى في تعاطيه مع الدين في المجتمع العراقي بقواه المختلفة، خاصة مع تلك التي القوى التي كانت تحمل اطروحات سياسية ذات اتجاهات اسلامية. وتبرز صفات مثل الشعوبية، والرجعية،

والانحراف، والارتباط بالأجنبي والاستعمار، الجانب الذي كان حزب البعث يحاول أن يلصقه بالدين والممارسات الدينية في المجتمع في سعيه لتجريمها من جهة، وجعلها غرضاً للملاحقة من جهة أخرى. وبشكل عام فإن حزب البعث كان يستغل الدين كورقة سياسية، كلما كان يشعر بالقلق أو الخوف تجاهه في المجتمع، وإن كان بشكل أقل مما بدت عليه سياساته في تسعينيات القرن الماضي.

وعلى الرغم من الطبيعة العلمانية للنظام التي لم تتعاط مع الدين بشكل ايجابي أو مفتوح، إلا أن برقية أرسلتها السفارة الأميركية في بغداد عام 1977 [7] كشفت توجهاً مختلفاً تبناه حزب البعث آنذاك في تعاطيه مع الدين في الشأن العام. فقد قام صدام حسين، الذي وصفته البرقية بأنه ''الرجل الأقوى في السلطة'' بزيارة علنية لضريحي الإمامين علي والحسين، وأدى الصلاة فيهما، وقد رافقه حينها عزت الدوري الذي كان يشغل منصب وزير الداخلية والذي وصفته البرقية بأنه ''أقرب حليف سياسي لصدام.'' ويبدو أن هذه هي المرة الأولى التي يظهر فيها قيادي بعثي وهو يزور مراقد مقدسة ويؤدي الصلاة فيها. مما اعتبرته البرقية نقطة تحول في تعامل الحزب العلماني مع الدولة والمجتمع، والذي كان يفصل بقوة بين الممارسات الدينية والحزب. بالاضافة الى خطابه الذي القاه والذي تحدث عن أن ''الإمام علي والإمام الحسين هما قادة لصدام كما هم قادة للاسلام.''

وقد أشارت البرقية إلى أن صدام وحزبه كانا يسعيان من خلال الزيارة إلى ''تهدئة خواطر الأغلبية الشيعية بعد منع النظام قيام الشيعة بممارسة طقوسهم في وقت سابق من نفس السنة.'' وذكرت البرقية أن ظهور صدام وأعضاء من حزبه في مكان ومناسبة دينيتين يؤشران على أن الحزب بدأ ينأى بنفسه عن مفهوم الفصل الشديد بين الدولة والدين. وهو ''أول ظهور لشخصية سياسية كبيرة من النظام في ممارسة دينية.'' وتشير هذه الواقعة إلى التعاطي المصلحي والمتلون لنظام حزب البعث مع الدين، فهو علماني بشكل متطرف اذا ما تطلبت الظروف ذلك، وهو متدين معتدل اذا اصبح في وضع ضعف، وهو متدين متشدد اذا ما تغيرت الأوضاع وتطلبت قواعد اللعب السياسي منه ذلك. يذكر أن هذه الخطوة التصالحية التي حاول نظام حزب البعث القيام بها أواخر عام 1977 تجاه الشيعة، كانت أيضاً بسبب الضغط الشديد الذي كان يتعرض له النظام في حربه ضد الأكراد آنذاك.

ولكن يبدو أن الرياح لم تجر كما يريد النظام. إذ أن انتصار الثورة الاسلامية ضد الشاه في ايران قد حفز انطلاق ما عرف آنذاك بـ''الصحوة الاسلامية'' في المنطقة. وهو أمر لم يستطع النظام تجاوز مخاطرها. كما أن اندلاع الحرب العراقية–الإيرانية ربما يكون واحداً من أهم أسباب سعي نظام حزب البعث لتحييد تأثير الصحوة الاسلامية عليه ووفق تعاون اقليمي معروف آنذاك.

بعد عام من حديثه أمام أعضاء حزبه، نشرت مجلة ألف باء عام 1987 مقالاً مثيراً للاهتمام لصدام حسين، حمل عنوان ''الحركات السياسية الدينية والحركات المغطاة بغطاء الدين.'' ويبدو أن هذا المقال كان يحاول تسويق رؤية صدام وبشكل علني للتعامل مع الحركات الاسلامية السنية في العالم العربي من عام 1986 التي كانت تدور في أروقة الحزب السرية. وقد بدا على المقال أنه يتناقض مع اطروحته عام 1977. فقد كان يحمل لغة تصالحية، وهادئة، وتبريرية في بعض أجزائه للحركات السياسية الإسلامية، وضمن عبارات مطاطة. فبعد أن مهد في مقاله بأن القومية هي الاساس الذي حرك المقاومة والتحرير في العالم العربي، ولكنه انتقد شاه ايران لأنه اتخذ اساليب غربية بعيدة عن طبيعة المجتمع الايراني جعلته ''ينفرد برأي وسلوك غربيين مقطوعي الجذور عن شعبه. وأن سلة من العوامل هي التي أسقطت الشاه وليس فقط الحراك الديني. وقد تقبل في مقاله اقامة حكومة دينية، حيث ذكر،

''وهكذا عندما كانت تقام الدول الدينية، وتمتد الى ما تمتد اليه من شعوب وامم، فان تلك الشعوب، والامم تصبح جميعها في وضع افضل من النواحي الانسانية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية، ومن الناحية السياسية وقبل هذا، بل وفوق هذا ايضا، من ناحية اليقين, والاهتداء الى سواء السبيل بعد الضياع والكفر، ولم يشهد العالم، والوطن العربي دولة دينية ضمت امما شتى بإرادة شعوبها الا تحت تأثيرات هذه المفاهيم.''، ولكنه عاد ليشير إلى أن انحراف الحاكم لا يمكن أن يكون لوحده شرطاً لتقبل نظام ''الدولة الواحدة للشعوب'' ويقصد بها هنا النظام الاسلامي.''[8]

وبرزت اللغة التصالحية لصدام مع اتجاهات اسلامية سياسية بعينها مستثنياً منها الحركات ''الشعوبية''، ويعرف أن نظام حزب البعث كان يشير إلى الشيعة عندما يذكر صفة ''الشعبوية'' حيث قال،

''ورغم اننا لا يجوز ان نقول ان ليس كل الذين يعملون في اطار هذا التوجه بعيدين عن الدين، والنية الصادقة، ابتداء من صلتهم بالدين ومعانيه السامية، علينا ان نقول بوضوح قائم على يقين عميق لا يسمح بالتردد، بأن هذا التوجه يعج من جهة اخرى بمرتكبي الكبائر والمعاصي وخاصة في الحركات ذات الاغراض الغاطسة والمغطاة بغطاء الدين من الحركات الشعوبية ممن لا تتعدى صلتهم بالدين الصلة الشكلية الانية المؤقتة فحسب، للعبور الى هدف سياسي هو قلب بنظام او انظمة حكم معينة ليس الا، فاذا كان التحليل ينطوي على القول القاطع بأن مثل هذا التوجه قد يفضي الى ما يسقط هذا النظام او ذاك، دون ان يهتدي الى اعطاء البديل الناجح، والقادر على الاستمرارية بعد سقوط الانظمة المستهدفة فان الشعب سوف يقاوم ذلك ابتداء، ولا يتفاعل مع حاملي شعاراته.''[9]

الحملة الإيمانية الوطنية الكبرى

يبدو أن صدام حسين، وبعد الهزائم المتوالية التي ألحقها بالعراق في تسعينيات القرن الماضي، قد بدأ يبحث عن وسائل تحافظ على نظامه من الانهيار، وتعطي نظامه نوعاً من الشرعية التي فقدها، ولكن وفق آليات وأطر تختلف عن التي كان يتبناها في الفترة السابقة. فقد شكلت انتفاضة عام 1991 تحدياً أمنياً وسياسياً خطيراً أطاح بالنظام لولا التوازنات الاقليمية آنذاك. ومع تضعضع مفاصل الدولة والمجتمع تحت الحصار والحكم الشمولي، وضعف سلطة الحكومة، فقد اتجه النظام إلى ركوب الموجة الدينية، وترسيخ موقعه على أسس دينية سعت في بعض أجزائها لإحداث تغيير طائفي للمجتمع العراقي مستنداً في بعض مفاصله على خبرات غير عراقية وأخرى عراقية. ويبدو أن استراتيجية صدام حسين من عام 1986 قد بدأ بطرحها من جديد، ولكن بشكل أكثر منهجية واتساعاً. ويظهر أن مبدأ حزب البعث البراغماتي والبعيد عن أية ايديولوجيا واضحة قد اتخذ عنواناً ينسجم مع متغيرات الوضع المحلي والاقليمي الجديد، فمادام المجتمع يريد الدين، فليعطهم الحزب الدين بطريقته، وليستمر الحزب بالحكم. إذ أصبح ركوب الموجة الدينية، ذات البعد الطائفي طوق النجاة للحزب ونظامه في ظل ظروف اقليمية ودولية كانت تنتظر سقوطه. فبعد أن سقطت ورقة الاستقواء بالمحيط العربي على أساس قومي كورقة سياسية تقوي وضع النظام داخلياً الذي كان يحكم باسم الاقلية في الفترة السابقة، ، فإن الورقة الدينية ذات البعد الطائفي تم استغلالها هذه المرة وبقوة لترسيخ نفس المبدأ في ظل حكم حزب البعث الشمولي للبلد.

أعلن في عام 1989 عن وفاة مؤسس ومنظر حزب البعث ميشيل عفلق، الذي كان يوصف في أكثر من مستوى على أنه شخص لا يؤمن بالله. وقد أثارت وفاته العديد من ردود الأفعال، بسبب إعلان حزب البعث عن إسلام عفلق بعد وفاته. وقد أرجع حزب البعث السبب عن عدم إعلان اسلام عفلق اثناء حياته إلى ''عدم جعل الموضوع عرضة للتفسيرات السياسية.'' يضاف إلى ذلك أن ابن عفلق الأكبر قد نفى إسلام أبيه، حسب مصادر دبلوماسية غربية آنذاك. ويبدو أن وفاة عفلق قد كانت الهدية الثمينة التي تلقاها صدام حسين في ذلك الوقت، فقد خلصته من الإرث الذي كان ميشيل عفلق يتركه على سمعته كشخص وحزب في تواصله مع شرائح كبيرة من الاسلاميين العرب السنة، وكسب دعمهم في أوضاع سيئة كان يعيشها في ذلك الحين. وكان عام 1989 شهد حدثاً سياسياً ملفتاً ولكن في مكان بعيد عن العراق، ألا وهو الانقلاب الذي قاده عمر حسن البشير، وهندسه وأداره حسن الترابي.

كانت التسعينيات بداية العمل المباشر بين صدام حسين وبعض التنظيمات الاسلامية، خاصة في السودان، التي تحولت إلى دولة تطبق الشريعة الإسلامية، وأصبحت بعد عام 1990 الملاذ الآمن لطيف واسع من الحركات الاسلامية، ومنها اقامة أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة فيها.

ويبدو أن علاقة خاصة واستراتيجية بين صدام حسين وحسن الترابي كانت تبدأ بالتشكل. فقد كان صدام حسين يسعى بكل السبل الى ايجاد مواطئ قدم سياسية له في عالم تعامل معه بحصار سياسي واقتصادي قاتل، ووجد في الترابي حليفاً استراتيجياً له، يستطيع أن يفتح له قنوات تواصل مع الاسلاميين، وخاصة الإخوان المسلمين في العالم العربي، الذين يبدو أن شوكتهم بدأت تقوى في ذلك الوقت، اجتماعياً وسياسياً. وقد وجد الاثنان مصلحتهما في هذا النوع من التعاون. وتذكر محاضر حزب البعث من عام 1991 بأن الترابي قد ألقى خطبة بحضور صدام حسين، اقترح فيها أن يتحول العراق الى نظام اسلامي على غرار النموذج السوداني[10]. وبغض النظر عن الأسباب، إلا أن دفاع الترابي المستميت عن صدام حسين، يؤكد بأن الترابي بالإضافة إلى شخصيات سياسية–اسلامية أخرى قد تحولت إلى موقع التنظير ومساعدة صدام حسين في سبيل هندسة اجتماعية جديدة للمجتمع العراقي، استفادت من أوضاع الفقر والعوز، وضعف السلطة، واستفاد النظام من التفسيرات الخاصة بها للإسلام كي ينشأ وضعاً جديداً يمارس من خلاله حزب البعث سياساته السابقة ولكن بعناوين اسلامية هذه المرة ولفترة امتدت الى سقوط النظام عام 2003.

انطلقت الحملة الايمانية الوطنية الكبرى عام 1993. وتحركت بشكل مكثف عبر مفاصل المؤسسات الحكومية المختلفة، وذلك من خلال التشريعات، النظام التعليمي، النظام الإداري، القضاء، والنظام الأمني، والجوانب الاقتصادية بل وعلى المستويات الشخصية لأفراد المجتمع العراقي. ويبدو من خلال قراءة المنهجية والمنطلقات والأساليب للحملة، فإنها كانت تتحرك وفق اسلوب منهجي وبشكل غطى كافة شرائح المجتمع، وقد ساهمت في إنشاء بنية تحتية للتطرف الديني في العراق، ومزجت بين العنف البالغ القسوة لحزب البعث وبين التبريرات الدينية المتطرفة لها. وقد ركزت الحملة على قضيتين، يبدو أنه تم اختيارهما بدقة، نشر تعليم وحفظ القرآن، وتطبيق بعض الحدود الشرعية. ويبدو أن الهدف كان يتحرك في أفق اغلاق الطريق على أية معارضة للحملة من جهة أن من يعارضها فإنه سيعارض القرآن، ومن جهة أخرى تطبيق الحدود التي كانت تبرز قسوة النظام وترهب المجتمع، ولكن تحت غطاء شرعي أيضاً، فمن يرد عليها يكون كمن يرد على الإسلام وتشريعاته. كما استهدفت بشكل مفرط النظام التعليمي كله، مما يبرز طبيعتها التي تحركت لهندسة المجتمع العراقي وتغيير طبيعة تفكيره ولأجيال.

بدأت ماكنة حزب البعث الاعلامية باستخدام مصطلحات اسلامية في التعامل اليومي لخطابات رئيس النظام، أو بروباغاندا الحزب التي كانت تمجده. فأطلقت صفات مثل ''الرئيس المؤمن'' على صدام حسين، وحلت كلمة ''جهاد'' و''مجاهد'' بدلاً من ''نضال'' و''مناضل'' على سبيل المثال. ومع تصاعد ايقاعات الحملة، فقد تمت صياغة عدة تشريعات كان القصد منها استخدام بعض الأجزاء التشريعية الاسلامية التي تلاقي قبولاً لدى الناس للتأثير على الرأي العام

داخلياً، وجذب تأييد الجماعات الاسلامية في العالم العربي، امتداداً من السودان ووصولاً إلى الأردن. ومع انسياق بعض المحللين الغربيين إلى نتيجة مفادها أن صدام حسين بدأ في تسعينيات القرن الماضي عملية ''أسلمة'' لحزبه، ابتدأها من خط عبارة ''الله أكبر'' على العلم العراقي، وأنه كان في الطريق لتبني الاسلام السياسي كفكر موجه لحزب البعث، إلا أن هذه الفرضية يشوبها الكثير من الاندفاع. فعلى الرغم من الخطوات التي قام بها صدام حسين في نشر التدين وفق معادلات خاصة به في المجتمع العراقي، إلا أن هذه الخطوات لم تكن إلا جسراً للعبور الى مرحلة أخرى، حاول من خلالها النظام تحقيق الأهداف التالية:

- محاولة الحصول على مشروعية البقاء في السلطة، بعد ان انتهت تلك المقومات من خلال عدم القدرة على حفظ الحدود، عدم القدرة على توفيرات الخدمات الاساسية للمواطنين، وأهمها الغذاء، تدهور الأمن وعدم قدرة قوى النظام الأمنية على مواجهة انتشار الجريمة، وفوق ذلك تدهور شعبيته داخلياً وعربياً.

- صياغة بيئة اجتماعية ذات صبغة طائفية تستند على الدين بدلاً من شعارات الحزب وماكنته السياسية والاعلامية. ويبدو أن انتفاضة 1991 قد نبهت النظام إلى أهمية الدين بتفسيراته كورقة مهمة في حماية نظامه من السقوط. خاصة مع مناغمة تيار شعبي متصاعد كان يتبنى الاطروحات الدينية كحل لأزمات البلد.

- فتح قنوات تواصل مع التيارات والحركات الاسلامية السنية في العالم العربي. وتحويلها الى صيغة مساندة له ولنظامه في معركته من أجل البقاء، وربما تحويلها فيما بعد إلى ورقة سياسية ضاغطة على البلدان التي تنشط فيها.

- استخدام الدين كغطاء لتصفية الخصوم السياسيين وكل تحرك قد يمثل تهديداً للنظام. وأصبح من السهولة تصفية الخصوم تحت عناوين التصفية التي وضعها النظام بذرائع مختلفة.

- وضع المؤسسات الدينية في العراق وبشكل تدريجي تحت هيمنة حزب البعث ومؤسساته بشكل مباشر وتحت توجيهاته.

في أيلول عام 1993، قامت وزارة الداخلية العراقية بشن حملة أغلقت خلالها أكثر من نصف النوادي الليلية في بغداد. كما تم منع استهلاك الخمور علناً في جميع أنحاء العراق. وقبل ذلك في عام 1990 بدأ التركيز يتزايد حول انشاء مؤسسات دينية تتبع النظام بشكل مركزي، ولكن في نفس الوقت تمارس تدريس ونشر ثقافة الدين من اتجاه طائفي معين وكانت تطرح عليها الصيغة التشريعية والقانونية وفقاً لقوانين خاصة بها. فقد أنشأ النظام عدداًمن المؤسسات التي كانت تتحرك في أفق

اعداد أئمة ودعاة تحت مظلته. فقد تم انشاء ''جامعة صدام للعلوم الإسلامية''، وتم انشاؤها وفق قانون ومع امتيازات استثنائية، منها منع المحاكم العراقية من النظر في الدعاوى التي تقام على الجامعة. ويبدو أنها كانت من المؤسسات المهمة التي كان حزب البعث يرعاها خلال فترة التسعينيات، وكانت محركاً مهماً لحملته الإيمانية بالاضافة إلى مؤسسات دينية أخرى، حملت اسم صدام أيضاً. فقد تم انشاء ''مركز صدام لاقراء القرآن الكريم'' في جامع الإمام الأعظم، كان هدفه اعداد قراء القرآن لجميع مساجد العراق. وقد تحول المركز فيما بعد الى ''كلية صدام لاعداد الأئمة والخطباء والدعاة'' عام 1997. ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد. فقد تم انشاء ''هيئة معاهد صدام العليا لدراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة'' التي يبدو أنها كانت مدرسة الإعداد العقائدي الجديد لأعضاء حزب البعث. حيث كانت ترتبط بما كان يسمى ''مكتب أمانة سر القطر'' حسب قانونها، وكانت تعد ما كانت تسمى بـ''الدورات الإيمانية'' للحزبيين. ويذكر قانونها أنها تهدف إلى ''احداث تغيير نوعي في تعزيز الرصانة العقائدية الايمانية للرفاق الحزبيين ابتداء من الملاك المتقدم في الحزب وأنتهاء بأبعد الحلقات التنظيمية القيادية وبما يحقق الاصالة الفكرية للامة العربية عن طريق دراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة دراسة استبصار وفهم بما يعزز رسالة العرب الى الناس كافة، وثانيا — بناء جيل جديد واع ومتبصر بالمعرفة الايمانية والمباديء والقيم السامية، ليكون قوة فاعلة ومؤثرة في المجتمع وقادرة على الاستمرار بحمل الرسالة الكبرى الى الامة العربية والى الانسانية جمعاء من خلال توثيق أواصر التعاون مع المؤسسات العلمية والايمانية المختلفة داخل العراق وخارجه.''[11] ويوضح ذلك مدى الأهمية التي كان يوليها النظام في السيطرة المباشرة على تلك المؤسسات، وتحركه لتشكيل توجه جديد في المجتمع العراقي يجمع بين أفكار حزب البعث المتطرفة وأفكار تحمل صبغة دينية تنسجم مع تلك الأفكار يمكن أن نسميه بـ''الصورة البعثية للإسلام''.

وحسب عبدالمنعم أحمد صالح، وزير الأوقاف العراقي السابق في لقاء صحفي له عام 1999، فإن النظام أسس معهداً خاصاً لتدريس القرآن والسنة في حزب البعث ''تدرس فيه أعلى مراتب الحزب وتمضي دورات تتراوح بين سنة وسنتين، ولهذا المعهد فروع في المحافظات.''[12] كما تم توجيه أعضاء حزب البعث لحضور دورات في القرآن والسنة على يد رجال دين عبر ما اطلق عليه الدورات الايمانية في ''معهد صدام العالي لدراسة القرآن الكريم والسنة النبوية.'' بالاضافة الى إنشاء عدة مدارس للدعوة (على نظام الحلقات) حسب وزير الأوقاف العراقي السابق. وقد أعطت هذه القرارات سلطات ومساحات تأثير أكبر لرجال الدين الذين ارتبطوا بالنظام في تلك الفترة، وكجزاء لعملهم فقد تم توزيع قطع أراض عليهم ومن قبل صدام حسين شخصياً [13]. كما وسعت الحملة الإيمانية مساحة العمل للجماعات السلفية في المجتمع دونما تضييق، و''تحت بصر ومعرفة الحكومة العراقية.''[14] ويبدو أن هذه المؤسسات قد أنتجت جيلاً جديداً من أئمة المساجد والوعاظ والخطباء والقيادات الدينية تميزت بالتطرف والفكر الطائفي والتساهل في إطلاق الأحكام بما يبرر الكثير من

أفعال القسوة والاعتداء التي كان يقوم بها النظام آنذاك.

في التسعينيات من القرن الماضي تحركت مؤسسات النظام الدينية الى استقطاب الشباب في حملتها لحفظ القرآن. حيث شارك 60 الف طالب وطالبة في دورات صيفية نظمت في المساجد لحفظ القرآن أثناء العطلة الصيفية عام 1992 وحده، وتحت إشراف الأئمة والقراء الذين كانوا يدرسون او يتخرجون من مؤسسات النظام المتخصصة، ومع أن المشاركات في بداياتها كانت طوعية، ولكن الأمر تحول إلى طريقة ممنهجة يديرها النظام وفق تجاربه السابقة. فقد تم توجيه وزارة التربية العراقية بأن تقوم باختبار المدرسين والمعلمين لقياس مستويات معارفهم الاسلامية. وقد تم توجيه وزارة التربية بأن تجعل درس حفظ وتلاوة القرآن جزء من منهجها لكافة المراحل الدراسية. وقد تم اعطاء علاوات لمدرسي القرآن والدين في المدارس، مما منحهم مستوى أعلى من المدرسين الآخرين. ويشير قانون وزارة التربية الذي أقره النظام عام 1998 وضمن المادة 2، "العناية بالتربية الدينية والخلقية بما يضمن تدريس الدين الاسلامي على هدى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة." ويشير الى الحملة الايمانية في الأسباب الموجبة، "وكانت نقطة التحول في مسارها مناقشات ورقة عمل النهوض التربوي خلال سنتي 1992 و 1993 التي حظيت برعاية السيد الرئيس القائد صدام حسين، وبتوجيهاته التربوية والاجتماعية السديدة التي تضمنت الصيغ التطبيقية لتطوير الجوانب النوعية للعملية التربوية تتقدمها الحملة الايمانية الوطنية الكبرى التي هي أساس النهوض التربوي المنشود، المبني على تعليم القرآن الكريم وفهمه بصورة صحيحة وفق منهج دقيق ومتكامل."[15] ويذكر وزير الأوقاف العراقي السابق بأن "دراسة القرآن الكريم أصبحت إلزامية بالمدارس وخلال الفترة من الابتدائي الى الثانوي قد درس القرآن كله مع التفسير مع حفظ أجزاء منه."

ولكن يبدو أن الحملة الإيمانية استبطنت وضعاً كان النظام يغض الطرف عنه، لأسباب سياسية وطائفية. فقد أفرزت وضعاً بدأ ينتشر وبعلم النظام، ألا وهو وضع التطرف الديني بالتوجه السلفي. وقد أشارت الكثير من المتابعات الإخبارية والصحفية آنذاك إلى انتشار المذهب الوهابي والسلفي بين الشباب في العراق وفي عدة مناطق. وقد كان هؤلاء يتحركون بحرية بملابسهم القصيرة ولحاهم الطويلة، ودعواتهم التكفيرية في بعض المساجد التي أسسها وبناها صدام حسين. ويبدو أن هذه الأوضاع لم تكن مريحة لعدد من أقطاب النظام آنذاك، ومنهم عدي صدام وبرزان الأخ غير الشقيق لرئيس النظام. فقد نشر عدي رسالة شكوى في صحيفة بابل الناطقة باسمه عن خطورة انتشار الحركة الوهابية في العراق، مستغلة الانفتاح الديني والفقر والحاجة في المجتمع العراقي تحت الحصار. وتشير هذه الرسالة إلى أن العربية السعودية كانت تضخ الأموال لنشر الفكر الوهابي في العراق[16]. وقد حذرت مذكرة ارسلها برزان الى صدام حسين من خطورة انتشار التطرف الديني في العراق، واحتمال تمكنه من قلب نظام الحكم فيه[17]. وتشير مقابلات مع بعض الذين عاشوا الفترة

التي كانت تطبق فيها الحملة الإيمانية، بأن بعض التنظيمات السلفية كانت تدفع ما يعادل 150 دولاراً أميركياً لقاء الانتماء إليها، والصلاة في مساجدها، وحضور حلقاتها في بغداد والمناطق العراقية الأخرى.[18]

وتحت وضع اقتصادي متدهور جراء الحصار، حيث وصف تقرير لمنظمة الصحة العالمية الوضع في العراق بأن قطاعات واسعة من العراقيين كانوا يعيشون على حافة المجاعة عام 1997 [19]، فقد اتخذ النظام قراراً ببناء عدد كبير من المساجد في انحاء العراق قدر بالألوف حسب عبدالمنعم أحمد صالح وزير الأوقاف العراقي السابق[20]. كان أهمها جامع ''أم المعارك'' في بغداد، والذي احتوى على قرآن صدام الخاص الذي قيل انه تمت كتابته بدمه على يد الخطاط الشهير عباس البغدادي. ويعكس تصميم جامع أم المعارك الفكرة البعثية للإسلام والدين. فالمنارات تأخذ شكل صواريخ سكود، فيما مثلت أخرى بنادق كلاشنكوف الروسية، وصممت بحيرة فيه على شكل خارطة للعالم العربي. ويلاحظ امتزاج وسائل العنف والتدمير، والتفكير القومي بالمسجد الذي يصلي فيه المؤمنون. فيما اتخذ قراراً ببناء جامع ضخم في منطقة المنصور في بغداد أسماه ''جامع الدولة الكبير'' يسع لعشرين ألف مصل، ولكن سقوط النظام عام 2003 حال دون استكمال هذا المشروع.

وقد توالت حلقات العمل في هذه الحملة، فقد أصدر النظام عدداً من التشريعات والنظم والإجراءات تعلق كثير منها بصياغة صورته الخاصة للإسلام ومستفيداً منها في تثبيت وضعه السياسي. فقد عمد إلى إطلاق سراح السجناء الذين يحفظون القرآن. وأصدر قانون فقه المعاملات الذي أجبر بموجبه كل شخص يريد العمل بالتجارة في العراق أن يجتاز اختباراً في المعاملات الاسلامية وفق ما أطلق عليه ''كراس فقه المعاملات'' الذي أعدته وزارة الأوقاف العراقية[21]. كما تم التساهل في تطبيق أحكام قطع أعضاء جسد الإنسان، والإعدام. فقد شملت الأحكام قطع الأيدي لجرائم السرقة[22] ولكنها امتدت لتشمل قطع الأرجل والآذان وبشكل موسع جداً لا لتشمل كل تهم السرقة–في ظل أوضاع اقتصادية سيئة كان يمر بها البلد– ولكن تعدتها لتشمل حالات تزوير في محرر رسمي[23]. ووشم ما بين الحاجبين لمن يتم قطع يده، بدقة يحددها القانون بشكل ملفت للنظر، ''بعلامة ضرب يكون طول كل خط من خطيها المتقاطعين سنتمتراً واحدة وعرضها ملمتراً واحداً.''[24] وتنفيذ أحكام القتل بواسطة قطع الرأس بالسيوف.

نظراً لطبيعة النظام الأمنية، فقد تغلغلت هذه الأفكار الدينية وعن قصد في منظومة أجهزته الأمنية والعسكرية. ويلاحظ أن مع تمدد واتساع حملة النظام ''الإيمانية''، فقد تم تشكيل ميليشيا أطلق عليها ''فدائيو صدام'' التي أصبحت القوة الضاربة الجديدة للنظام، في عقد تميز بوضع اسم صدام على كل مفصل من مفاصل البلد، وتميزت هذه الميليشيا بسلوكها بالغ القسوة، وكانت تقوم بأفعال وحشية وبشكل علني. وتشير المعلومات المتوفرة أن عديد ميليشيا فدائيي صدام كان

يتراوح بين 10 آلاف إلى 15 ألف عنصر، من الموالين الأشداء لنظام حزب البعث[25]. وقد كانت هذه الميليشيا تخضع لسيطرة عدي، الابن الأكبر لصدام حسين، وكان يستخدمها في قتل، وقمع، وتعذيب مناوئيه بالاضافة الى التهريب. كانت تستخدم أيضاً كفرق موت تنفذ القتل والاعدام خارج النطاق الرسمي وبأوامر ومنها قطع الرؤس. ويطرح قانون تشكيلها الضوء على العقلية الخطيرة التي كان يسير من خلالها العراق في تسعينيات القرن الماضي، حيث كان يتم خلط قسوة النظام، بمبادئ حزب البعث القديمة والخطاب الديني المتطرف لتنتج صورة غريبة الشكل تشرعن أعمالها ضمن الإطار الديني الذي تبناه النظام. وقد تركت هذه الرؤية والتوجه آثاراً خطيرة على العراق، توضحت معالمها بعد سقوط النظام. ويشير قانون تأسيس قوة فدائيي صدام إلى أنه يشترط في المنتمي الى التنظيم التحلي بـ" المحافظة على معاني الشرف مستهدياً بالدين الإسلامي الحنيف وكتابه الكريم والقيم العالية والنماذج الانسانية للسلف الصالح من الأمة العربية المجيدة."[26] بالإضافة إلى ذلك فقد نشأ جيل جديد من ضباط الأمن والجيش في تلك الفترة ممن تأثروا بهذه الأجواء التي كانت تضخ خطاباً دينياً متطرفاً وفق ايقاع نظام حزب البعث. ومن هؤلاء عدد غير محدد من قيادات القاعدة وتنظيم داعش حالياً.

بالإضافة إلى ذلك فقد حققت الحملة الإيمانية جزء مما كان يصبو إليه النظام، تمثل بخلق حالة تواصل مباشر بين النظام والحركات الاسلامية الأصولية–الجهادية كالقاعدة وغيرها من خارج العراق. ويبدو أن النظام وعبر حملته الإيمانية، ومعاهده الدينية، ومعسكرات تدريبه والتركيز الدعائي الذي حصل عليه عبر قنوات تلك الحركات الإعلامية قد تمكن من جذب عدة ألوف من الشباب المتحمس من عدة بلدان عربية تحت ذريعة مقاتلة الأميركيين. ولا يمكن نفي احتمال وجود تواصل بين صدام حسين وأسامة بن لادن عندما كان الأخير متواجداً في السودان، نظراً لطبيعة النظام التي كانت تحاول الاستفادة من كل الأوراق التي تثير الأزمات في المنطقة، ولطبيعة العلاقة الحميمة بين النظام والبلد العائل لابن لادن حينها.

الحملة الإيمانية والإرهاب وداعش

لقد تمكن النظام من خلال حملته الإيمانية التي استمرت لعقد من الزمن من تشكيل عقلية جديدة في المجتمع العراقي، أو بعض منه. وعلى الرغم من صعوبة الحكم على مدى تأثير هذه الحملة في تشكيل العقل العراقي، ولكنها بكل تأكيد صنعت نموذجاً جديداً لبعض العراقيين ممن يتبنى التطرف والعنف والالتزام الديني السطحي، والفهم العائم للنصوص الدينية، وتفسيرها حسب المزاج. ويبدو أن التوسع في مناهج حفظ القرآن، والسنة النبوية، وتلقين المبادئ المتطرفة والعنصرية

لحزب البعث مع ضغوط الأوضاع الاقتصادية والأمنية، وخلق التمايز في المجتمع على أساس الالتزام بخطط الحملة الإيمانية مع الولاء لشخص صدام، والعنف الذي كانت تديره السلطة قد خلق ما يمكن تسميته الجيل الجديد للتطرف والعنف في العراق.

وتؤشر اساليب التنظيمات المتطرفة التي بدأت تمارس العمليات الإرهابية في العراق بعد سقوط نظام صدام حسين على نفس المنهجية التي كانت تستخدمها اجهزة النظام الأمنية. فالتنظيمات الكثيرة التي برزت بعد سقوطه، كمجلس شورى المجاهدين، والقاعدة، والجيش الاسلامي في العراق، وجيش الطريقة النقشبندية، وداعش كلها كانت تتبع نفس العقلية الأمنية للنظام في جمع المعلومات، وتنفيذ العمليات، وأساليب الإدارة التي تعمل وفق آليات توثيقية صارمة، واساليب التمويل التي تتبع اساليب التهريب التي استخدمها النظام السابق، بل ووصل الأمر إلى أساليب ميليشيا فدائيي صدام في تنفيذ عمليات الإعدام العلنية وبأشكال مروعة. تلك البصمة تشير بوضوح إلى أن الخبرات الأمنية والتدريب التي اكتسبها أعضاء أجهزة النظام السابق الأمنية انتقلت إلى التنظيمات الارهابية وتكاملت مع التفكير الديني المتطرف الذي غذته لهم الحملة الإيمانية. وقد وفر سقوط النظام فرصة لهؤلاء كي يتحولوا من الولاء لحزب البعث وصدام حسين ليكونوا جزء رئيساً من تلك التنظيمات. وهكذا فقد زودت الحملة الإيمانية مراجع دينيين لهذه التنظيمات، وخطاباً دينياً مقبولاً في المجتمع الذي تتحرك فيه، بالاضافة إلى الخبرات القتالية والأمنية والشباب المتحمس.

وتشير الكثير من التقارير والدراسات المتخصصة في دراسة الإرهاب في العراق إلى أن أغلب القيادات العسكرية في تنظيمي القاعدة في العراق، وداعش هي من المراتب العسكرية والأمنية في النظام السابق. وأن هذه القيادات هي بعمر تأثر كثيراً بأجواء الحملة الإيمانية التي كانت تستهدف العراقيين بشكل مركز. وقد تمكن هؤلاء من بناء شبكة معقدة تستند على خبراتها الأمنية. ويبدو أن أكثر من 100 ضابط عراقي هم من يقودون ويوجهون استراتيجيات تنظيم داعش حالياً، وقد عمل أغلبهم في تنظيمات متطرفة أخرى منذ عام 2003. وحسب تقرير لوكالة أنباء اسوشيتدبرس، فإن طه طاهر العاني، الذي كان ضابطاً برتبة رائد في مدرسة المدفعية في الجيش العراقي في تسعينيات القرن الماضي كان يحمل توجهات دينية متطرفة، ويعتبر الآن من أهم القادة العسكريين في تنظيم داعش[27]. وكان تقرير استقصائي نشرته صحيفة ديرشبيغل الألمانية عن تنظيم داعش قد عرض بتفصيل بالغ طريقة تفكير سمير الخليفاوي (حجي بكر) العقيد السابق في استخبارات القوة الجوية، والقيادي في داعش، بعد أن حصلت على وثائق وضع فيها خططه، حيث شرح فيها اساليب التجسس، وزرع العناصر، واساليب الاتصال، والهيكل التنظيمي، وغيرها من أمور[28]. وقد انضم الخليفاوي لتنظيم القاعدة عام 2003 ليتحول بعد ذلك ليكون عضواً قيادياً في تنظيم داعش. ويعد الخليفاوي العقل المدبر وراء توسع تنظيم داعش في الأراضي السورية حسب بعض الدراسات. وكان

يعد الرجل الثاني في التنظيم بعد ''أبوبكر البغدادي'' إلى أن قتل عام 2014. ويبدو أن عملية زرع التطرف الديني في المؤسسات العسكرية خلال أعوام الحملة الإيمانية قد أدت إلى ظهور هذا النوع من الأشخاص. وتذكر مصادر متنوعة اسماء وتفاصيل لعشرات من ضباط أمن ومخابرات وجيش نظام صدام من الذين تخرجوا ضمن أجواء الحملة الإيمانية ويشغلون مواقع قيادية مهمة في تنظيم داعش. وتتميز اساليب داعش بالقسوة الشديدة والتفسير المتشدد للنصوص الدينية.

أما معاهد صدام الدينية التي تم إنشاؤها في مراحل عمل الحملة الإيمانية فقد خرجت كادراً مهماً من رجال الدين من الذين يحملون معتقدات سلفية ومتعصبة ولكن بصبغة بعثية. فقد أمضى ابراهيم عواد ابراهيم (أبو بكر البغدادي) زعيم نظيم داعش عدة أعوام في جامعة صدام للعلوم الإسلامية، ليحمل شهادته منها. ولا يمكن الوقوف على العدد الكبير من رجال الدين الذين أنتجتهم الحملة الإيمانية أو قادوها، الذين كانوا أو هم اليوم جزء مهم من المنظومة التشريعية والتوجيهية والتجنيدية لتنظيمات ارهابية متطرفة كداعش وغيرها. ولكن قراءة وتحليل أبرز التنظيمات الدينية ذات الصبغة المتطرفة التي ظهرت بعد سقوط نظام صدام حسين من حيث القيادة تعطي مؤشرات واضحة عن هؤلاء. فهيئة علماء المسلمين على سبيل المثال، التي عرف عنها رعايتها عدداً من الجماعات الدينية المتطرفة المسلحة هي مؤسسة دينية–سياسية سنية ضمت عدداً من رجال الدين الذين كانوا أعضاء بارزين في حملة النظام الايمانية، وتتبنى الهيئة خطاباً طائفياً متشدداً وقد اتخذت من جامع أم المعارك مقراً لها عام 2003. فيما وصف أحد رجال الدين المقربين من النظام قبيل سقوطه الحملة بأنها ''أعادت للاسلام مكانته السابقة.''[29]

في خضم الأيام الأخيرة لنظام صدام حسين، وتحديداً في شهر نيسان من عام 2003، برزت الى الإعلام ظاهرة ما أطلق عليه ''المتطوعون العرب.'' وقد قدرت مصادر متعددة أعدادهم بحوالي 8000 مقاتل من عدة بلدان عربية وإسلامية[30]. وقد كان يجرى تدريبهم في معسكرات كانت تتبع النظام السابق في عدة أماكن من العراق. وقد اشارت بعض المصادر الأخرى إلى أن أغلب هؤلاء المقاتلين كانوا من الذين يحملون التطرف الديني كإيديولوجيا، وربما يكونون بالتعاون مع عناصر أجهزة النظام الأمنية والدينية قد شكلوا نواة تنظيم القاعدة في العراق، في الأشهر الأولى التي تبعت سقوط النظام، وبروز نجم محمد نزال الخلايلة (أبو مصعب الزرقاوي) قائداً للتنظيم. وقد تم توزيع هؤلاء المقاتلين في عدة مناطق في بغداد والعراق ككربلاء مثلاً، حول المواقع الاستراتيجية التي كان يخشى النظام سقوطها بسرعة. وترسم الشهادات التي جمعها الصحفيون عن هؤلاء بأنهم كانوا يحملون الفكر الديني المتطرف بما يشبه الفكر الذي يحمله عناصر تنظيم القاعدة أو داعش. وعلى الرغم من الخسائر الفادحة التي تكبدتها هذه الميليشيا على يد القوات الأميركية، إلا أن عدداً منهم قد تمكن من الانسحاب والاختباء في بعض المساجد في بغداد[31]. ومع هؤلاء المتطوعين بدأ استخدام

أحزمة المتفجرات والعمليات الانتحارية.

ومن الأمور التي لم ينتبه إليها العالم في تلك الفترة، هو صدور عدد من البيانات عن ما سمي بـ''قيادة المجاهدين في العراق.'' وكان هنالك تعتيم اعلامي على نشر تلك البيانات. وعلى الرغم من صعوبة التحقق من مصداقية هذه البيانات، إلا أن اللغة التي كانت تصدر بها تلك البيانات كانت تشبه تعابير التنظيمات المتطرفة في بياناتها، والمعلومات التي كانت تنشرها، تشير إلى أن هذا التكوين قد يكون النواة الأولى لتنظيم القاعدة في العراق. فالبيان الأول يزخر بكلمات مثل ''مجاهدين''، و''أمير''، و''عمليات استشهادية''، بالاضافة إلى الأسلوب اللغوي الذي يتحرك في أفق الأساليب اللغوية القديمة والوعظية. ولكن البيان الرابع كشف بعض التفاصيل الإضافية. فقد ذكر، ''تم بحمد الله تكامل العدد والعدة بدخول مرابطي افغانستان ومجاهدي القاعدة إلى بلاد الرافدين حسب ما رسم لهم من قبل.''[32] ويلاحظ أن تنظيم القاعدة عندما بدأ يعلن عن نشاطه في العراق، كان يطلق على نفسه اسم ''جماعة التوحيد والجهاد'' عام 2003، وتحول فيما بعد إلى ''القاعدة في بلاد الرافدين.'' ويلاحظ أن بيانات قيادة المجاهدين توقفت عن الصدور، فيما بدأت تصدر بيانات أخرى عن تنظيمات حملت الاسم الذي استخدم لأول مرة، ومنها ''قيادة المجاهدين للقوات المسلحة''، وأصبحت تكتب بأسلوب عادة ما يستخدمه حزب البعث. وقد يكون هذا مؤشراً على حصول انشقاق بين البعثيين والمتطرفين الجهاديين في فترة مبكرة من انهيار نظام صدام حسين. وبروز تنظيم القاعدة كقوة ارهابية فاعلة وخطيرة في العراق.

الاستنتاج

لقد مثلت حملة صدام حسين الايمانية في تسعينيات القرن الماضي منعطفاً خطيراً. حيث ساهمت وبشكل مهم في انشاء بنية تحتية للإرهاب والتطرف في العراق والمنطقة، وزرعت بذور الطائفية والاقتتال الطائفي. ومع الخلطة غير المتجانسة بين افكار حزب البعث ومنطلقاته، وبين افكار الحركات الدينية المتطرفة ومنطلقاتها، سوى التطرف والقسوة. إلا أن النظام السابق نجح فيما يبدو في إنتاج نموذج خطير جمع بين منهجية حزب البعث وقسوته وأساليب ادارته وبين تطرف وقسوة التنظيمات المتطرفة. وقد استخدم الخطاب الاسلامي لتبرير الكثير من الأساليب الاستئصالية والقمعية والقتل الجماعي. وقد أدت تلك الحملة إلى استكمال البنية التحتية لتدمير العراق والمنطقة عبر توفير عناصر الفكر والدعاية متمثلة بمعاهد صدام الدينية، وانتاجها رجال دين ينشرون الفكر المتطرف، وأشخاص يحملون الفكر المتطرف ليكونوا قادة وجنوداً في التنظيمات الارهابية التي بدأت تتكاثر بشكل كبير بعد سقوط النظام. كما تزامنت الحملة مع إعداد منظومة تدريب

وتجنيد عسكرية وأمنية بالغة القسوة لعناصر النظام السابق. ومع الاعداد الايديولوجي والعسكري فقد سمح الخطاب الديني الذي تبناه النظام أثناء الحملة الإيمانية بتمدد شبكات علاقة النظام مع التنظيمات والبلدان التي كانت تتبنى التفسير المتطرف والاقصائي للنصوص الدينية في البلدان العربية والاسلامية مما فتح العراق أمام دخول غير مسبوق للمقاتلين الأجانب الذين يقاتلون الى جانب تلك التنظيمات، وأغلبهم من الانتحاريين. ومع ضغوط الحصار، والحروب، وفوضى سقوط النظام والاحتلال والتدخلات الاقليمية في الشأن العراقي الداخلي، فإن العراق يعاني اليوم، كما تعاني بلدان مجاورة من تبعات تلك السياسة.

يضاف إلى ذلك أن تحليل جوانب هذه الحملة الايديولوجية لا يعطي دليلاً ناهضاً يؤكد توجه نظام البعث نحو الإسلام في العقد الأخير من عمره، أو تبنيه الفكر الإسلامي بديلاً عن أفكاره التي قام عليها. وإنما كانت الحملة الإيمانية مجرد أسلوب آخر، أو تكتيك من أساليب الهندسة الاجتماعية التي درج النظام بتطبيقها في المجتمع العراقي، ووفق نفس الاساليب التي استخدمها، كالعنف والقسوة، والدعاية، والتعليم، ومراكز التأثير المختلفة. وكانت الحملة تتحرك في أفق صناعة أرضية اجتماعية وسياسية ودينية تؤجل أو تعقد عملية سقوط النظام.

وعلى الرغم من توجه بعض الكتاب المؤيدين لنظام البعث بالدفاع عن الحملة، كونها كانت تحاول إعادة ترتيب حزب البعث كي يعود كحزب اسلامي بعد سقوطه[33]، أو أن الحملة الإيمانية كانت محاولة من النظام السابق لاحتواء ظاهرة التطرف[34]. إلا أن النتائج تدل على أن الحملة الإيمانية هي التي فتحت الباب واسعاً للحركات الدينية المتطرفة للعمل في العراق، بل وشجعتها. كما أنه لا يوجد ما يشير إلى أن حزب البعث قد تحول إلى الايديولوجيا الاسلامية بدلاً من الايديولوجيا الاوتوقراطية الشمولية التي كان يتبناها. وأن هذه الحملة كانت لأغراض سياسية بحتة.

يبقى من المهم أن تكون هناك دراسة أعمق لحملة صدام حسين الإيمانية وعلى أكثر من اتجاه، لفهم وتحليل الآثار التي تركتها على المجتمع العراقي، وكيفية العمل على تخليص الانسان العراقي من تبعاتها، التي يبدو أن بعض مقوماتها وأساليبها وشخوصها ماتزال متواجدة وبعمق في البيئات الدينية والتعليمية والاجتماعية والسايسية في العراق. ويمكن تلمس آثارها في الكثير من مفاصل الدولة والمجتمع. إذ أن الإرهاب الذي يعاني منه العراق اليوم، والذي يحمل صبغة التطرف الديني ما يزال يستمد مقومات بقائه في جزء كبير منه من آثار تلك الحملة.

المصادر :

1. ميشيل عفلق، في سبيل البعث
2. ميشيل عفلق، لقاء مع جريدة الجمهورية العراقية، 27 /4 /1980
3. ميشيل عفلق، كلمة بمناسبة الذكرى الأربعين لتأسيس حزب البعث، 7 /4 /1987
4. Amatzia Baram, From Secularism to Islamism: The Iraqi Naath Regime 1968-2003, October 2011.
5. Amatzia Baram, From Secularism to Islamism: The Iraqi Naath Regime 1968-2003, October 2011.
6. صدام حسين، نظرة في الدين والتراث، حديث في اجتماع مكتب الاعلام، 11 /8 /1977
7. Confedential. BAGHDAD 2208, subject: Saddam Hussein Wooes the Shia
8 صدام حسين، الحركات السياسية الدينية والحركات المغطاة بغطاء الدين، مجلة ألف باء، 13/5/1987.
9 نفس المصدر.
10 Amatzia Baram, From Militant Secularism to Islamism, The Iraqi Baath Regime 1968-2003, Woodrow Wilson International Center for Scholars, October 2011.
11 قانون هيئة معاهد صدام العليا لدراسة القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة رقم (14)
12 مجدي أحمد حسين، تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار، صحيفة الشعب، 1999.
13 جريدة الجمهورية، 7 /4 /1992
14 مجدي أحمد حسين، تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار، صحيفة

الشعب، 1999.

15. قانون وزارة التربية رقم (34) لسنة 1998.

16. صحيفة بابل، 19 /7 /1994

17. Amatzia Baram, From Militant Secularism to Islamism: The Baath Regime 1968-2003, October 2011.

18. مقابلات خاصة

19. Sheila Carapico, The impact of sanctions in Iraq, Middle east Report, Spring 1998.

20. مجدي أحمد حسين، تزايد المد الديني في العراق مع صمود فريد في مواجهة الحصار، صحيفة الشعب، 1999.

21. قانون فقه المعاملات (63) عام 2002.

22. قرار مجلس قيادة الثورة (59) عام 1994.

23. قرار مجلس قيادة الثورة (92) عام 1994.

24. قرار مجلس قيادة الثورة (109) عام 1994.

25. Sharon Otterman, Iraq, What is the Fedayeen Saddam?, Council on Foreign Relations, March 31, 2003.

26. قانون تأسيس قوة فدائيي صدام (12) عام 1996.

27. HAMZA HENDAWI and QASSIM ABDUL-ZAHRA, IS top command dominated by ex-officers in Saddam's army, AP, August 2015.

28. Christoph Reuter, Secret Files Reveal the Structure of Islamic State, Der Spiegel, 4/18/2015

29. حسن جويني، صدام حسين اختار الاحتماء بالاسلام من التطرف، تصريح للمين العام

للمؤتمر الاسلامي الشعبي، ميدل ايست اون لاين، 12 /12 /2002.

30. تيسير علوني، مأساة المتطوعين العرب في العراق، 24 /4 /2004.

31. نفس المصدر.

32. البيان الرابع من قيادة المجاهدين في العراق، جريدة الشعب، 19 /4 /2003.

33. فاضل الربيعي، الحل الجزائري في العراق واوهام عودة البعث الى السلطة، 26 /4 /2009.

34. أحمد علي، الحملة الإيمانية: الأسباب والخلفيات، الأهداف والأبعاد.